تاريخ خزائن الكتب بالمغرب
قراءة في كتاب د. بنبين

د. فيصل الحفيان*

لست أدرى هل ما سأكتبه قراءةٌ لكتابٍ ، أم استبطانٌ لما فى عقلِ مؤلّفه ، أم أشياءُ من هذا وأشياء من ذاك . ولستُ أدرى إذا ما كان هذا الخليط ، كفّةُ أيهما ستكونُ أرجح ؟ كما أنى لا أجزمُ : هل هو قراءةٌ موضوعيةٌ لكتابٍ بعينه ، أم قراءةٌ ذاتيةٌ تتكئ على كتاب ، ثم تتجاوزه إلى هموم التراث وقضاياه عامة .

أتركُ ذلك الآن ، لكنى متأكدٌ تمامًا أنّ الأمر أيًا ما كان فإنه لن يخرجَ عن حديثٍ فى «همّ التراث العربى الإسلامى فى المغرب» ، وهو همٌّ يعدُّ صدى لِهمٍّ توأمه فى المشرق . وكأن شجون الحديث المغربى هى - فى الوقت نفسه - شجون الحديث المشرقي . كلنا فى الهمّ - إذن - شرق أو غرب ، لا فرق .

وفاتحة الحديث أنه ما كان لتراثيٍّ أو معنيٍّ بالتراث أن يقع فى يده كتاب يحمل عنوان «تاريخ خزائن الكتب فى المغرب» حتى يقرأه . فإذا ما أُضيف إلى ذلك أن صاحبَ الكتاب هو د . أحمد شوقى بنبين ، أصبح وارداً أن يحدث انتقالٌ من فعل القراءة ، قراءةِ الكتاب ، إلى فعل الكتابة ، الكتابة عن الكتاب . وإنما يحدث هذا الانتقال لأن كتابًا بهذا الموضوع - وبخاصة لنا نحن المشارقة - لمؤلّف مثل د . بنبين ، لن تقنع منه بالقراءة التى قد تغرى بالسرعة ، وستجد نفسك - دون تردّدٍ - ميّالاً إلى التلبُّث عنده طويلاً ، فتشرعُ ببناء علاقاتٍ لا تلبث أن تتفاعلَ ، فتحرّكَ مياهًا راكدةً ، وتستثير فكرًا ، وتكون النتيجةُ أن تفرضَ الكتابةُ نفسَها فرضًا لا تُجدى معه مقاومةٌ .

* * *

الكتاب - كما نعرف - وعاءٌ يلخّص رحلةَ العقلِ الإنسانيِّ مع المعرفةِ ، وما تعنيه من حضارةٍ وتقدم . وهو - فى الوقتِ نفسه - يدفع العقلَ فى علاقةٍ جدليةٍ إلى رِحلات أخرى ، وعوالم جديدةٍ . وعليه فإن التأريخ له هو تأريخ للعقل البشرى ، ذلك السر الإلهيّ الذى استودعه الله الإنسان ، الإنسان وحده ؛ ليعمّر الأرض ، ويجعل منه خليفةً فيها . كأنّ التأريخ للكتاب هو تأريخ لأسمى ما يملكه الإنسان ، وما يميّزه من المخلوقات .

(*) باحث فى قضايا التراث والعربية ، ومنسّق برامج معهد المخطوطات العربية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) .

ود . بنبين واحد من نفر قليل مهموم بالكتاب ، مشغول به ، وخاصة ذلك الكتاب «القديم» الذي عُرف بعد ظهور الطباعة بـ «المخطوط» في العربية ، وبـ « manuscript» في الإنجليزية ، وبـ « manuscrit» في الفرنسية ، تمييزًا له من الكتاب الآخر الذي عرفناه بعد ظهور المطبعة .

ويمكن أن ننعت المخطوط محطَّ عناية د . بنبين بـ «العربي الإسلامي» . ويمكن أن نضيف نعتًا آخر «المغربي» ، وذلك أنه درَس دراسة أكاديمية معمَّقة هموم هذا الكتاب «المخطوط» عامة ، ومنعوتًا بنعوته آنفة الذكر خاصة ، بوصفه وعاء للمعرفة ، وهي دراسة وصلت إلى مرحلة متقدمة في الغرب ، في حين لا تزال تحبو عندنا . على أن دراسته هذه لا تعني عدم تمكُّنه مما يحتويه هذا الوعاء من معرفة لغوية وأدبية وإخبارية ودينية ، فالرجل مثلاً على صلة وثيقة بابن الفارض ، وحقق ديوان شاعر الحمراء ، إنه باختصار منفتح على التراث بمختلف فروعه المعرفية ، لكن تميزه الأساس في ما يُسمَّى بـ «علم المخطوط العربي» أو «الكوديكولوجيا العربية» هذا اللون من الدراسة الذي لا يزال - على الرغم من خطره - نقطة مجهولة أو تكاد على خريطة المعرفة العربية اليوم .

والحق أن قراءة كتاب د . بنبين والجولة في عقل الرجل أشبه بمغامرة على خشبة ألقيت في بحر هائج في يوم عاصف ؛ إذ الرجل كما نعتُّ لك . أما الكتاب فليس كتاب تاريخ ، ولا كتاب ثقافة ، ولا كتاب علم بعينه ، بل هو كتاب يجمع هذا كله وزيادة ، فالتاريخ فيه تاريخ الفرد ؛ الخليفة والأمير والوزير والعالم والفقيه والأديب ، وتاريخ الدولة ؛ الإدريسية والسعدية والوطاسية والمرينية والعلوية ، وتاريخ الكتاب ؛ الذي نعرف عنوانه ومؤلفه ولم نره ، أو نعرف عنوانه ونجهل من ألفَّه ، والمؤسسة (الخزانة أو المكتبة) التي أنشأها ملك ، أو خليفة ، أو أمير ، أو امرأة ، أو رجل من عامة الناس . والثقافة فيه ثقافة قديمة وحديثة ، تعرِّفك بالرجال وآثارهم وعلاقاتهم وحركاتهم وهواياتهم واتجاهاتهم ، كما تكشف لك عالم الكتاب ؛ القديم والحديث ، الذي كتبته يد الإنسان ، والذي طبعته المطبعة ، خطوطه وأنواعها ، وصناعته وطرقها ، وأحباره ووسائلها ، ومواد كتابته وتطورها ، وأمورًا أخرى كثيرة . وفي ثنايا ذلك قضايا علم المخطوط العربي : الوراقة ، والفهرسة ، والوقف ، والترميم ، والمخطوطات النادرة ، والفريدة ، والمنتسخة بأقلام مؤلفيها ، والخزائنية ، والملكية ، بل حتى تلك المترجمة من اليونانية واللاتينية إلى العربية . وإلى جانب ذلك ثمة قضايا لا تقل أهمية تتصل بتنظيم المؤسسات العلمية عبر العصور ، ووظائف القائمين عليها ، وعلاقاتها مع الجمهور ، والإجراءات القانونية لحركة الكتب فيها .

عوالم من المعرفة المتشابكة المعقدة ، لكنها ممتعة ؛ لأنها تأخذك إلى عالم الإنسان وعقله فى رحلة مثيرة ، وإن كانت متعبة .

إن قراءة كتاب «تاريخ خزائن الكتب بالمغرب» مغامرة ، ليس فى ذلك مبالغة ولا تهويل ، ولذلك كان لابد أن أضع فى الطريق صُوى تهدينى حتى لا تتحطم تلك الخشبة الضعيفة ، والمغامر لمَّا يبعد بعد عن الشاطئ .

أولى هذه الصوى أن أقدِّمَ الكتابَ ببليوغرافيًا بتركيز شديد ، تحت عنوان «قبل الولوج» .

وثانيتها أن أدخل عقل مؤلفه من خلال مقدمة كتابه .

وثالثتها أن أعرض محتواه .

ولكن كيف يتأتّى لى ذلك فى ظل هذا التشابك الذى أشرت إليه آنفًا ؟ وبرق فى ذهنى بعد طول تفكير أن أدخل إلى الكتاب من أبواب عدة ، بابٍ أدلف منه إلى المادة التاريخية ، وبابٍ ألج عبره إلى ما يتصل بالخزائن ، وثالثٍ أمور تتصل بالجغرافيا .

وما دمت قد فتحت تلك الأبواب على المادة ، فلا بأس إذن من فتح نوافذ ألقى عبرها نظرات نقدية . وبعد تطوافى ذلك تأتى الخاتمة .

هذه إذن قراءة سريعة للكتاب ، تحاول أن تلج إلى عوالم مادته من أبواب مختلفة ، وتنظر إليها من زوايا محددة ، بغية اللَّفت إلى ما فيها ، دون أن يعنى ذلك أن هذه الإشارات تغنى عن العبارات .

ويحسن التنبيه هنا إلى أن طبيعة هذه القراءة التى أعربت فى مطلع كلامى عن حيرتى تجاه كونها قراءة لكتاب أم استبطانًا لما فى عقل صاحبه ، قراءة موضوعية أم ذاتية .. خَلَطَتْ بين كلامى وكلام الكتاب ، وجعلت منهما نسيجًا واحدًا ، يعكس همًّا مشتركًا .

- ١ -

قبل الولوج

هذا كتاب صدر مؤخرًا (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م) عن الخزانة الحسنية بالرباط (المملكة المغربية) لمؤلفه د . أحمد شوقى بنبين محافظ الخزانة . وقد قام بنقله د . مصطفى طوبى (تلميذ د . بنبين) من الفرنسية ، بعد أن ظل أسير هذه اللغة نحوًا من سبع عشرة سنة ، بعيدًا عن عيون المثقفين العرب والمسلمين .

والكتاب فى الأصل هو الرسالة الأكاديمية التى حصل بها د .بنبين على درجة دكتوراه الدولة فى الأدب من جامعة بوردو الثالثة (فرنسا) عام ١٩٨٦ ، تحت إشراف الأستاذين : روجى أرنالدز (Roger Arnaldez) ومارك برجى (Marc Berger) ، وكانت تحت عنوان[1] : Histoire des bibliotheques au Maroc والترجمة العربية التى قام بها طوبى (موضوع هذا البحث) هى أيضًا رسالته التى نال بها درجة الدكتوراه ، تحت إشراف د . بنبين .

وقع الكتاب (النسخة العربية) فى (٣١١) صفحة من القطع المتوسط ، مصدَّرًا بتقديم د .بنبين نفسه ، ثم مقدمة المترجم ، ثم تقديم للأستاذ المشرف روجى أرنالدز ، ثم مقدمة للدكتور بنبين مرة أخرى ، وهذه الأخيرة هى مقدمة أطروحته بالفرنسية ، وقد قام المترجم بترجمتها إلى العربية .

وجاءت المادة فى بابين كبيرين : أولهما تحت عنوان «خزائن الكتب فى التاريخ الثقافى للمغرب» . وثانيهما تحت عنوان «بنية خزانات الكتب بالمغرب» . وقد شغل الباب الأول الصفحات من ٢١ حتى ١٧٢ ، والثانى من ١٧٥ حتى ٢٨٢ . ثم جاءت الخاتمة فى صفحتين (٢٨٣ ، ٢٨٤) . وأعقبتْها ببليوغرافيا بالمراجع العربية ، والمقالات ، والفهارس والقوائم الببليوغرافية ، ثم مراجع باللغات الأجنبية ، فمقالات من مجلات أو دوريات ، وفهارس وقوائم ببليوغرافية باللغات الأجنبية أيضًا ، وأخيرًا جاء فهرس المحتويات .

نعود إلى الباب الأول ، فنجده موزعًا فى أربعة فصول : الأول لبدايات خزانات الكتب فى المغرب ، والثانى لنموِّ خزانة الكتب المغربية وتطورها ، والثالث لازدهار خزانات الكتب فى المغرب ، والرابع تحت عنوان «من المكتبة التقليدية إلى المكتبة العصرية» .

أما الباب الثانى ففيه أيضًا أربعة فصول : محنة المكتبة المغربية ، وَقْف الكتب فى المغرب ، الوِراقة وخزانات الكتب ، مخطوطات المكتبات المغربية .

باختصار شديد يمكن القول إن الكتاب يعرض لنقطتين رئيستين : أولاهما تاريخية صِرْفة . وثانيتهما موضوعية صِرْفة . ولعل فى كلمة «صِرْفة» بعض التجاوز ، ففى ثنايا التاريخ مسائل موضوعية ، وفى ثنايا الموضوعية أحيانًا تاريخ ، لكن السِّمة المنهجية الغالبة هى أن يظلَّ التاريخ على حِدة ، والموضوع على حدة . وما هذا فى ذاك ، وذاك فى هذا إلا من قبيل التداخل الطبيعى اللازم فى سياق توضيح الفكرة ، ومدّ أبعادها ، وتحقيق الاكتمال لها .

(١) طبعت فى الرباط ، عام ١٩٩٢م .

- ٢ -

داخل عقل المؤلف

كتب د . بنبين لكتابه مقدمتين : الأولى - وإن جاءت تالية - هى التى كتبها بالفرنسية فى العام ٨٥ عندما قدَّم رسالته . والثانية - وجاءت أولى - هى التى صدَّر بها الطبعة العربية . وثمة خيط لا تخطئه عين فى الاثنتين معًا ، يتمثل فى مقدار الجهد الذى بذله فى سبيل بحثه . فما قام به كان «مهمة صعبة» أو «مخاطرة كبرى» على حدِّ تعبيره ؛ وذلك لأن تاريخ خزائن الكتب ليس بابًا خاصًا فى تراثنا الحضاري . وهذا يعنى أنه لا يتمتع بمصادر مستقلة يمكن استقراؤها والرجوع إليها ،لكنه داخل فى نسيج المعرفة التراثية بصنوفها وألوانها المتعددة ، وبخاصة تلك المعرفة التى تتصل بما يعرف بكتب التراجم والأثبات والمشيخات والمعاجم والرحلات ، على أن ما هو مبثوث فى ثنايا هذه المصادر ، لا يبلُّ صدى ، ولا يشفى غُلّة ، كما يقولون .

مَنْ المسؤول عن هذا الإشكال ؟

يرى د . بنبين أنه «التاريخ الذى أخفى عنا جزءًا كبيرًا من أمجادها (أى المكتبة) وتغيراتها . والإشكال كما عبرتُ عنه هو - فى رأيه - نوع من التدليس . وهو ميزة حضارة لم تتكلم بما فيه الكفاية عن منشآتها المادية ومؤسساتها»[1] ، كأن المتهم هو التاريخ أو الحضارة . وهذا حقٌّ ، فالتاريخ - كما نعلم - ليس رجلاً كريمًا دائمًا ، فهو يضنُّ ، وربما يُخفى كثيرًا مما يعرف . وليست سمة البخل هذه قاصرة على التاريخ العجوز (القديم) ، فالتاريخ الفتيُّ أو الشاب الذى نعيشه أو نعيش فيه يخفى أيضًا تحت إهابه الكثير ، ولا يبوح إلا لمن يملك النظر والصبر والقدرة على الاستقراء والموازنة والغوص فى ما وراء السطور والأحداث وما فوقها وما تحتها .

لكن ما ذهب إليه د . بنبين ، وما وافقتُه عليه ، فيه تجاوز . فالتاريخ أو الحضارة ليس سوى شخصية هلامية ، أو بالأحرى هو ليس شخصية حتى تفعل ، الذى يفعل حقًا هو الإنسان ، يخلط الأوراق ، ويزيفها ، ويزورها ، ويضيِّعها ، ويخفيها ، وربما يحرقها ، عن حسن نية حينًا ، وعن سوء نيةٍ غالبًا .

---

(١) ص ١٧ .

ويبدو أن المؤلف كان مدركًا لهذا التجاوز ، ولهذا فإنه فى غير موطن من صلب الكتاب[١] يحمّل المسؤولية صراحة للإنسان المغربى ، والمقصود به هنا : الإنسان العالم تحديدًا ، فهو لم يهتمّ بتاريخه إلا لمامًا . وليس د . بنبين بِدْعًا فى ذلك ، فهو يتابع فى هذا الكثيرَ من الكتّاب المغاربة المتأخرين ، ومنهم أحمد بابا ، والمقّرى ، ومحمد العربى الفاسى ، واليوسى ، والكتانى .

وإذا كان المؤرخون المغاربة قد اتهموا من سبقهم بصورة مباشرة باللامبالاة إزاء تاريخ بلادهم وثقافتها ومؤسساتها العلمية ، فإن هناك متهمًا أو متهمين آخرين ، هم أولئك الذين ضيّعوا ما كتبه العلماء والمؤرخون ، فثمة مخطوطات كثيرة فُقِدت ، لأسباب كثيرة ، ليس هذا موطنَ تفصيل القول فيها ، لكن المؤكد أن وراء هذه الأسباب غالبًا «الإنسان» مرة أخرى ، قد يكون مغربيًا ، وقد لا يكون ، لكنه الإنسان .

وما قلناه آنفًا بشأن التراث المغربى ، والمؤرخين المغاربة ، والتاريخ ، والإنسان عامة ، هو ما يمكن أن يقال عن التراث فى المشرق ، والمؤرخين المشارقة ، والتاريخ ، والإنسان عامة ، لا فرق كبيرًا بين الحالين .

نعود إلى مقدمتَيْ الرجل ، فنقول إن من يقرأهما سيجدد عددًا من المقولات «الشوقيّة» (نسبة إلى المؤلف) التى صدر عنها فى أطروحته ، ولها امتدادات فى كلامه الآتى جميعًا .

وقد قمت باستخراجها نظرًا لأهميتها ، فهى - إلى ما سلف من خطرها فى الكتاب - ترتبط بقضايا تراثية عامة ، ويمكن تلخيصها فى النقاط التالية :

- غنى تراث المغرب .
- تكامله مع تراث المشرق .
- تقديس المغاربة للكتاب .
- تقصيرهم تجاه تراثهم .

وإنما استخرجت هذه المقولات ؛ لأن د . بنبين فى كتابه كان أقرب إلى الوصف منه إلى التحليل ، وقد اعترف بذلك فقال : «إن بحثنا لم يصل إلى المكانة التى يطمح إليها . . وتهيمن على البحث الذى نقدمه المعرفةُ الواصفة ؛ لأننا اعتبرنا أن الابتداء بالتحليل أمر غير مناسب ، فالتحليل - فى نظرنا - ما زال سابقًا لأوانه . . ونحن نذهب إلى أنه

(١) انظر مثلاً : ص٣٧ ، ٨٧ .

حتى المظهر الوصفى ما زال بعد لم يستنفد (كذا) .. وإنما كان ذلك كذلك بسبب غياب «الكتالوجات» والفهارس والببليوغرافيات .. إلخ»[١] .

وهذا حقٌ ، فالتراث فى المغرب (موضوع بحث د . بنبين) ، بل التراث العربى فى المشرق والمغرب على حدٍّ سواء ، بحاجة إلى جهود كثيرة حتى تتضح معالم خريطته وتضاريسها . وعليه فإن الوقت مبكر فيما يتعلق باستخراج النتائج وإطلاق الأحكام ، والانتقال من مرحلة الوصف إلى مرحلة التحليل .

المقولات التى استخرجناها إذن مهمة ؛ لأنها تكشف لنا عن رؤية د . بنبين للتراث وقضاياه وما يتصل به فى بحث وصفيّ ، لم تمكّنه المصادر من أن يحقق غاياته ، ويصل إلى أبعد مدى فى ما يطمح .

٢ - ١ : غنى تراث المغرب

يؤمن د . بنبين بغنى التراث العربى الإسلامى فى المغرب ، وهو إيمان حق ، يشاركه فيه الكثيرون ، والشواهد عليه كثيرة ، فى صدارتها ما يحتفظ به المغرب حتى اليوم من مخطوطات فى خزائنه الملكية ، والخاصة ، والعامة ، ومساجده ، وزواياه ، وهذا - كما يقول - دليل مفحم على اندماج الأقطار البربرية فى الحضارة العربية الإسلامية على مستوى التأليف منذ القرون الأولى للهجرة[٢] .

إن «تراث المغرب» غنيٌّ على أصعدة مختلفة ، وفى مستويات متعددة . وقد لمس د . بنبين معظم هذه الأصعدة والمستويات . وأنا فى تناولى لنقطة الغنى هذه لا أرمى إلى مناقشته ، ولكن إلى جمع ما تناثر من إشاراته ، والإضافة إليها .

اشتهر المغرب - كما يقول - بكونه «أول دولة إسلامية تحتفظ بالمخطوطات التى لا توجد فى أماكن أخرى ، وعرفت مكتباته بالتعدُّد والتنوع والثراء»[٣] . ولعل الفصل الرابع ضمن الباب الثانى قد جاء خالصًا لخدمة هذه المقولة ، فمن خلاله عرض لمحتويات الخزائن المغربية فى الماضى ، وفى الحاضر ، متوقفًا عند أهم الأجناس والأوعية التأليفية : الفهرسة ، والكُنّاشات ، والمجاميع ، بالإضافة إلى تلك المخطوطات ذات القيمة العالية ،

(١) ص ١٩ .
(٢) ص١٦ .
(٣) ص٢٤٩ .

على وَفْق أسس مختلفة : القدسية (القرآن الكريم والكتب المقدسة) ، والأصالة (بخطوط مؤلفيها) وما يلحق بها ، والنُّدرة ، والنفاسة ، وتحت كل أساس تفصيلات يطول الكلام فيها .

وأودُّ أن أدخلَ إلى هذا الغنى من مُدْخَل آخر ، يضيف بعدًا جديدًا ، أو زاوية مختلفة ، قد لا يُتَنَبَّهُ إليها فى كلام د . بنبين ، أعنى تركيز ألوان غنى تراث المغرب فى :

غِنَى الكمِّ

ووراء هذا النوع من الغنى أسباب عديدة ، وله مظاهر مختلفة . ففى الأسباب ثمة سبب رئيس ، عنه تفرَّعت الأسباب الأخرى ، ويتمثل فى تقديس المغاربة للكتاب ، وولعهم به ولعًا شديدًا . وهذه نقطة أتوقف عندها لاحقًا فى سياق آخر .

إن الحديث عن غنى الكم فى التراث المغربى (شأنه شأن الحديث عن التراث العربى الإسلامى فى عمومه) حديث مُرْسل ، على الرغم من أنه حقيقة تاريخية ، وحقيقة حاضرة ، فالإشارات التاريخية مبثوثة فى المصادر المختلفة ، ولا تزال آثار هذه الإشارات ودلائلها باقية حية فى الخزائن المغربية . وهذا ما يحزُّ فى نفس كل عاشق للتراث . ولعله هو الذى دفع د . بنبين إلى المطالبة باستنفار الجهود من أجل وضع أساس «مونوغرافى» ، يوفر لنا الفهارس والكشافات والببليوغرافيات و «الكتالوجات»[1] .

نحن لا نملك حتى اليوم رقمًا محدَّدًا للمخطوطات فى المغرب ، لا رقمًا تاريخيًا ، أيا كان التاريخ الذى يرصده ، ولا رقمًا حاضرًا ، لكنه - بلا شك - رقم كبير . وهذه بعض مؤشرات ذلك . فى مدينة سبتة وحدها - كما يقول الأنصارى (ت ٨٥٤هـ) صاحب «اختصار الأخبار» - كانت توجد (٦٢) خزانة ، منها (٤٥) ترجع إلى القرن الرابع الهجرى ! وما أكثر الخزائن المغربية التى نعتها المؤرخون بأنها «تحتوى على عدد هائل من الكتب أو أنها «مكتبة ضخمة» .

وفى العصر الحديث ، ومع التنبُّه إلى التراث ، وتصاعد الاهتمام به ، وظهور بعض الباحثين الذين زاروا عددًا كبيرًا من المكتبات فى البلاد العربية والإسلامية ، والأجنبية ، عرفنا أرقامًا جزافية أطلقها هؤلاء ، فمِنْ قائل بأن عدد المخطوطات العربية مليون ، ومن

---

(١) ص١٩ .

قائل بأنها ثلاثة ملايين ، ومن قائل بأنها خمسة ملايين . وظل الرقم الحقيقى «أُحجية» لا تزال تبحث عن حل حتى اليوم ؛ لأن هذه الأرقام جميعًا لم تعتمد على أساس علمى ، ولم تقم على رصد حقيقى .

الغنى حقيقة ، لكنها حقيقة ضبابية لم تتضح بعدُ أبعادها وحدودها . أليس طبعيًا إذ أن يكتفى د . بنبين بالوصف ، وينأى عن التحليل ؟ .

غنى التنوع والخصوصية

يتميز التراث العربى فى المغرب بالتنوع اللافت ، وهو تنوع على أكثر من مستوى ، مستوى المصادر ، ومستوى الموضوعات .

أما المصادر فالحكاية تبدأ من أن هذا التراث ليس ثمرة لتلك المنطقة الجغرافية ، أعنى أنه ليس نتاج عقول أبناء تلك المنطقة أو المقيمين فيها فحسب ، ولكنه أيضًا قادم أو مجلوب من الخارج ، فقد كان المغاربة شديدى الحرص على الكتب وشرائها بأى ثمن . فالخليفة الموحدى أبو يعقوب يوسف ـ مثلاً ـ لم يكن يتردد فى دفع أى ثمن مقابل الكتب التى يريدها ، وفى سبيل ذلك خصَّص أموالاً طائلة . ولم يتوقف عند هذا الحد ، بل إنه كثيرًا ما لجأ – فى إجراء يمكن لنا أن نصفه بالأثرة والظلم – إلى مصادرة الكتب التى يرغب فيها . وثمة شواهد تاريخية على ذلك(١) .

وإذا كانت إشارتنا إلى المصادرة من قبيل الاستطراد فى هذا السياق ، فإننا نعود ـ على عجل – إلى نقطتنا الأساس (تنوع المصادر) فنلحظ أن د . بنبين أشار إلى أن المرينيين أقاموا علاقات تبادل مع ملوك الأقطار الإسلامية الأخرى . فأبو الحسن المرينى كان يتبادل الكتب مع الناصر محمد بن قلاوون (مصر) . والوطاسيون كذلك ، وإن كان التاريخ لم يَبُح بالكثير عنهم . وثمة إشارة إلى أن كتابًا من القاهرة أُهدى إلى الخليفة أبى العباس أحمد الوطاسي ، كما ذكر ابن عسكر صاحب «دوحة الناشر»(٢) . أما المنصور الذهبى (السعدى) فكان يرسل إلى كل الأقطار الإسلامية (القاهرة ، مكة ، إستا نبول) تجارًا أمناء ، محمَّلين بمبالغ كبيرة ، ويطلب منهم أن يشتروا له الكتب(٣) .كان الرجل شغوفًا بالكتب ، لا يأبه لشيء فى سبيلها . وفى هذا السياق ينقل د . بنبين من إحدى الرسائل السعدية

---

(١) ص٥٣ .
(٢) ص٨٩ ، ٩٠ .
(٣) ص٩١ .

(نشرها عبد الله كنون) أن موظفى القصر السعدى كانوا يسافرون ويفرغون الأكياس المليئة بالذهب ؛ ليعودوا بالكتب من كل مكان[١] .

ولابد من الإشارة هنا إلى مسألة مهمة ، هى حركة النِّساخة الواسعة فى المغرب ، وهذه الحركة لم تكن قاصرة على الكتب المغربية ، بل شملت تلك الواردة من الخارج ، فقد كان الخلفاء يكلفون النُّساخ بكتابة نسخ عديدة برسم المكتبات المغربية العامة والخاصة[٢] .

خلاصة القول : إن روافد غنية وعديدة أسهمت فى إغناء التراث فى المغرب : التبادل مع البلاد الأجنبية والعربية ، والسفر إلى الخارج ، والمراسلات ، والمواسم الدينية كالحج .

يضاف إلى ذلك كله رافد مهم هو «الترجمة» ، فقد أشار د . بنبين إلى أن الترجمة التى توقفت فى المشرق فقد قرون من النشاط ، استمرت فى المغرب ، وبخاصة فى عهدى السعديين والعلويين ، فقد ترجمت عيون الآثار العلمية الغربية فى بلاطاتهم ، وكان الخلفاء يقومون بأنفسهم بذلك ، فالملك العلوى محمد بن عبد الرحمن (١٨٧٣م) ترجم أو أشار بترجمة كتاب نيوتن حول علم الفلك[٣] . وثمة كتب ذكرها د . بنبين ترجمت من الإسبانية والبرتغالية والعبرية .

أما تنوع الموضوعات فقضية لا تقلُّ عن سابقتها خطورة . إن الدول التى حكمت المغرب ، واختلفت نظرتها إلى العلوم اختلافًا وصل إلى حد التناقض ، قد أسهمت ـ وهى لا تدرى ـ فى تنوُّع موضوعات التراث من ناحية ، وفى تركزها من ناحية ثانية ، وفى خصوصيتها من ناحية ثالثة . فإذا كانت الدولة المرابطة مالكية خالصة ، حتى إنها منعت تدريس المذاهب الفقهية الأخرى ، ونظرت إلى الكتب العَقَدية (أصول الدين) والفلسفة على أنها بدع بل كفر[٤] ، فإنها بلا شك قد أثّرت المذهب المالكى ، وأعطت لتلك الحقبة التاريخية مذاقًا علميا خاصا . فى حين سارت الدولة الموحدية فى الاتجاه المعاكس لسابقتها ، بل للدول السابقة ، حتى وُصفت بأنها دولة محبَّة للفلسفة ، ففى أيامها ازدهت دراسة الفلسفة والتصوف والتاريخ والجغرافيا والفلك والنحو والتنجيم والطب .

وإذا كانت السياسة قد قامت بدور مزدوج بالصورة التى سلفت ، فإن ثمة مظهرًا من مظاهر الخصوصية للتراث فى المغرب لا علاقة للسياسة به بتلك الصورة المباشرة ، وأعنى

(١) ص ٩١ .
(٢) ص ٧٩ .
(٣) ص ٨٠ .
(٤) ص ٤٦ .

به (أى المظهر) انفراد هذا التراث بألوان معينة من التأليف . والانفراد هنا ليس بمعنى عدم وجود هذه الألوان فى تراث المشرق مثلاً ، ولكن بمعنى أنه أوضح كثيرًا فيه من توأمه (المشرقي) .

ومن ذلك موضوع «الرحلة» ، فلا شك أن التأليف فى هذا الجنس المعرفيّ أكثر حضورًا فى المغرب منه فى المشرق ، سواء على مستوى الكم ، أو النوع ، أو التنوع . إن الذاكرة تستدعى فى هذا السياق على الفور : ابن بطوطة ، والعبدرى ، وابن رُشَيْد ، وغيرهم كثير . وقد أشار إلى ذلك د .بنبين ، وعدَّ الرحلة عنصرًا هامًا على المستوى التاريخى فى المغرب[1] . وأحسب أن وراء ذلك عوامل عديدة ، يمكن الإلماح إليها بأن المشرق كان أسبق علميا ، وكان بذلك مقصد المغاربة لاغتراف العلم . كما لا يخفى دور الحج ، تلك الفريضة الإسلامية التى تجذب المسلمين من كل مكان ، والطريق من المغرب إلى مكة المكرمة طويلة ، وتحفل بالمشاهدات واللقاءات ، وتفتح آفاق الفكر ، ومن ثَم التأليف .

وهكذا اكتمل عِقد التراث العربى فى المغرب ، مصادر ، وتنوعًا ، وخصوصية ، وعوضت كل دولة- برعايتها الزائدة - ما قصَّرت به الأخرى ، وكان الكاسب فى النهاية هو التراث نفسه .

ولا ينفى ذلك أننا خسرنا ثروات لا تقدَّر بثمن من الكتب نتيجة التعصب ، لكنه شأن الحياة ، لا تعطى إلا لتأخذ . ويبقى أن نستفيد من الدروس ، ولا ننتسخ الأخطاء .

٢ - ٢ : تكامله مع تراث المشرق

لا شك أن حركة العلم عمومًا ، والتأليف خصوصًا ، قد بدأت فى المشرق ؛ لأسباب تاريخية معروفة ، لكن المغرب (والأندلس) لم يتأخر كثيرًا عن توأمه ، صحيح أنه اعتمد عليه فى البداية ، بل إنه قلَّده حتى قيل فى أحد الكتب الأندلسية (العقد الفريد لابن عبد ربه) عندما وصل إلى المشرق «هذه بضاعتنا ردت علينا » . لكن المشارقة والمغاربة كانا فرسى رهان ، ليس بالمعنى السلبى للمنافسة ، ولكن بالمعنى الإيجابى . معنى حب العلم والرغبة فيه . وإذا كانت البداية مشرقية ، فإن زمام المبادرة أصبحت مغربية فى مرحلة لاحقة ، ليس فى كل الميادين العلمية ، ولكن فى بعضها على الأقل .

---

(١) ص ٧٩ .

ومن هذه الميادين ميدان الترجمة . وهذا ما لمسه د. بنبين ، عندما أشار إلى أن حركة الترجمة فى المشرق «قد توقفت فى العصر الذى سمى بعصر الانحطاط ، وبقيت مستمرة فى المغرب بفضل تشجيعات الخلفاء ، وخاصة السعديين والعلويين ، «وكان الخلفاء يترجمون فى بعض الأحيان هم بأنفسهم الكتب إلى العربية . .» وضرب أمثلة عديدة على الكتب التى ترجمت من اللاتينية والفرنسية والبرتغالية والإسبانية والعبرية(١) .

يمكن أن نقول إذن : إنَّ الراية انتقلت إلى المغرب ليكمل المهمة ، تلك التى بدأها فى المشرق حنين ومدرسته . هو التكامل الذى ألمحنا إليه ، والذى صبّ فى النهاية فى إغناء التراث العربى الإسلامى (وهو تراث واحد مشرقًا ومغربًا) وإعطائه قيمته وخصوصيته .

٢-٣ : تقديس المغاربة للكتاب

يبدو لى أن النقطة السابقة التى توقّفنا عندها (غنى التراث فى المغرب) هى ثمرة نقطتنا الحالية ، فالمغاربة عُنوا بالكتاب أيما عناية ؛ بل إنهم وصلوا به إلى مستوى التقديس ، وقد رصد د. بنبين مظاهر هذا التقديس فى غير موطن من كتابه ، وساق له الشواهد و الوقائع التاريخية التى تدلُّ عليه وتؤكِّده :

فى الباب الأول (التاريخى) عرض لألوان حرص المغاربة على الكتاب ، وهو يتحدث عن نشأة الخزائن المغربية ونموها وازدهارها .

و فى الباب الثانى (الموضوعى الفنى) توقَّف عند نقطة خاصة بمحاولات إرجاع المخطوطات ، وهو ما يعكس مسألة الحرص و التقديس من زاوية أخرى .

إن هذا التقديس له أساس تاريخى ، فقد بدأ فى صورة ولَع ، استشهد له د. بنبين بطارق بن زياد (القائد المغربى المسلم) الذى فتح إسبانيا ، إذ كان لدى الرجل خزانة خاصة ، وكان معنيًا بجمع الكتب من البلاد المفتوحة ، وأهدى مجموعة من اثنين وعشرين كتابًا إلى الوليد بن عبد الملك بدمشق(٢) .

وله أيضًا أساس نفسى (سيكولوجى) ، فقد كان المغاربة يحبون الآداب ، وحب الآداب يُفضى دائمًا إلى حب الكتاب ، كما قال كاترمير . وهذا الحب لم يكن حِكْرًا على فئة أو طبقة ، بل كان ظاهرة عامة لدى الخلفاء والأمراء والأعيان والعلماء والناس عامة .

---

(١) ص ٨١ ، ٨٢ .
(٢) ص ٢٩ .

وعلى أية حال فإن تقديس المغاربة للكتاب يتجلى فى :

أ - الحفاظ عليه من الوقوع فى أيدى غير المسلمين ، أو على حد التعبير الوارد فى الكتاب : «فى أيدى الكفار» .

ب - الاستئثار به ، بمعنى منع إفادة الآخرين منه .

جـ - محاولة استرداد ما فُقد منه ، مهما غلا المقابل ، وارتفع الثمن .

د - السعى للحصول عليه بأية طريقة كانت .

وثمة شواهد وحكايات كثيرة تدل على حرص المغاربة على أن لا تقع كتبهم فى أيدى اليهود و المسيحيين ، فقد حكى د .بنبين حكاية نيكولا كلينار الذى مكث خمسة عشر شهرًا فى فاس ، وأذن له الملك المغربى أحمد الوطاسى بحمل بعض المخطوطات ، لكن أحد مسلمى الأندلس منعه . وهذا ما دفعه (أى كلينار) إلى أن يقول : « يمكن للمسيحيين أن يدخلوا إلى مكان المزاد ، إلا أنهم يتجشمون خطر الموت رجمًا ، طالما أنهم يثيرون الشكوك فى أن المخطوطات قد تركت لأياد أجنبية عن الإسلام»[(١)] .

وإذا كانت هذه الحكاية قديمة (على عهد الدولة الوطاسية) مما قد يوحى بأن الأمر لا يعدو أن يكون مسألة تاريخية ، فإن الأمر لم يتغير فى مطلع القرن العشرين ، فالمستشرق الفرنسى ل . مرسيى واجه كثيرًا من الصعوبات فى الحصول على الكتب بسبب كونه مسيحيا[(٢)] .

وقد أفاض د . بنبين فى التوقف عند مظاهر تقديس المغاربة للكتاب ، فى سياقات عدة ، فأشار إلى دفن الكتب والتعصب ضدها وإحراقها ، وأيضا إلى الحرص عليها وشرائها بأى ثمن[(٣)] .

٢-٤ : تقصيرهم تجاه تراثهم

فى مقابل «التقديس» يبرز التقصير ، مما يجعل من التراث فى المغرب إشكالية حقيقية عصيّة على الفهم ، أو القبول ، أيًا كانت المسوّغات أو الزوايا التى يمكن أن يُنظر من خلالها إلى الأمر . وتتجاوز المسألة التقصير إلى التدمير ، مما يدفع بهذه الإشكالية إلى أبعد مدى .

---

(١) ص ٨٣ .

(٢) الموضع السابق .

(٣) انظر مثلاً : ص ٤٦ ، ٥٣ ، ١٥٠ .

وأظن أن هذين الأمرين (التقصير والتدمير) خرجا من عَيْبَة ما أسماه د . بنبين بـ «اللامبالاة إزاء التاريخ»[١] . وقد توقف غير مرة عند هذه الظاهرة التى لفتت انتباه كثير من الكتاب المغاربة المتأخرين ، أمثال الكتانى (صاحب سلوة الأنفاس) واليوسى (صاحب المحاضرات) ومحمد العربى الفاسى ، وأحمد بابا ، والمقّري[٢] ، وكانت وراء ضياع كثير من المخطوطات المهمة والأساسية فى جلاء صورة العطاء المغربى للحضارة العربية الإسلامية ، والإنسانية .

ويبدو لى أنهم (المغاربة) ليسوا بِدْعًا ، فالمشارقة أيضا قصَّروا ودمَّروا ، وأصحاب الحضارات الأخرى على امتداد التاريخ البشرى فعلوا مثل ذلك . إنه طبع الإنسان الذى كثيرًا ما يخطئ ، ويخضع لنزواته ، وينساق وراء أهوائه ، فلا يميز بين الضارِّ و النافع ، ويخلط بين الصواب والخطأ ، وربما جعل أحدهما مكان الآخر ، عمدًا أو جهلاً .

ولذلك فإن إنجازات الإنسان كثيرًا ما كانت ضحيته ، فالمرابطون مثلا أحرقوا مؤلفات الغزالى ، لأنها مثل كتب الفلسفة عمومًا «بدعة مشبوهة وحداثة دخيلة إلى الدين»[٣] ، والموحدون أحرقوا كتب المذهب المالكي ، وانقلبوا على ابن رشد فأحرقوا أيضًا كتبه ، كما ألَّبوا عليه غيرهم[٤] . وبالإضافة إلى السياسة ، شاركت الطبيعة فى تدمير الكتب والمكتبات ، فكان لجنودها من الحشرات والقوارض دور يذك ، ساعد عليه ، وأسهم فيه إهمال الإنسان .

لقد عقد د . بنبين فصلاً خاصا أسماه : محنة المكتبة المغربية ، رصد فيه تأثير عوامل الطبيعة ، وفتن السياسة ، وجرائم السرقة والنهب . و الفتن والجرائم خالصة للإنسان طبعًا ، أما الطبيعة فالإنسان فيها شريك .

وثمة ظاهرة بشرية مذمومة وقبيحة ، هى الاستئثار بالكتب ، أو «غلو الكتب» . ومما يؤسف له أن العلماء هم أبطالها ، فكثيرًا ما كانوا يقومون بذلك ، وقد ضرب د . بنبين نماذج على ذلك ، ورأى فى هذه الظاهرة سببًا مهمًا فى ضياع الكثير من المخطوطات النادرة .

ولا يمكن أن ننسى جرحًا آخر غائرًا ، ذلك الذى كانت وراءه الحروب الداخلية ،

---

(١) ص٣٧ ، ٣٨ .

(٢) ص٣٧ ، ٣٨ .

(٣) ص٥٢ . وانظر أيضًا : ص ١٧٩ .

(٤) ص ١٨٠ .

والغزوات الأجنبية ، والاضطرابات السياسية . هذه المناخات هى التى أدَّت إلى نهب الكتب وسرقتها ، وهكذا آلت مثلاً خزانة الملوك السعديين إلى الإسكوريال بإسبانيا ، وأُبيدت الخزانة الملكية الموحدية ، وشُرع فى نهب المخطوطات على أيدى البرتغاليين والإسبانيين . . . إلخ .

- ٣ -

الأبواب
(مداخل للقراءة)

٣-١ : باب التاريخ

أول كلمة فى عنوان الكتاب «تاريخ » ، والباب الأول فى الكتاب - وهو نَصيف الكتاب كله - عنوانه «خزائن الكتب فى (التاريخ) الثقافى للمغرب» وهذا الباب عموده الفقرى التاريخ ، فهو مقسوم إلى أربعة فصول ، فى أولها يحكى قصة الخزائن (من القرن الأول الهجرى إلى الخامس) ، وفى ثانيها (من الخامس إلى السابع) ، وفى ثالثها (من السابع إلى الثالث عشر) ، وفى رابعها (من الثالث عشر حتى اليوم) كأن الكتاب يقوم بالتاريخ ويتحرك فيه . ولا شك أن د . بنبين قد بذل جهداً كبيرًا فى تتبُّع النشاط الثقافى على امتداد هذه المساحة الزمنية الطويلة .

كان د . بنبين واعيًا بذلك ، فاستهلَّ مقدمته بالإشارة صراحة إلى ارتباط البحث فى تاريخ المكتبات بميدان أوسع هو تاريخ الثقافة . وإذا كان التاريخ الثقافى للمغرب قد وجد بعض العناية والاهتمام ، فإن تاريخ المؤسسات الثقافية (خزانات الكتب) لم يحظ بمثل ذلك[(١)] .

كما تنبَّه د . بنبين إلى أن كتب التاريخ والمصادر التراثية العامة لا تكفى للوصول إلى بعض الملامح الخاصة بصورة الخزائن المغربية ، فلجأ إلى ما أسماه ضروبًا أخرى من «المؤلفات البيليوغرافية شبه التاريخية والأدبية مثل مؤلفات النوازل والفتاوى والفهارس وعقود التحبيس وكتب المناقب وغيرها»[(٢)] .

(١) ص ٥ ، ١٥ .
(٢) ص ١٧ ، ١٨ .

واعترف صراحة بأن القرون الهجرية الخمسة الأولى «مظلمة» في ما يتصل بتاريخ الخزانة المغربية[١] ، فمن يتحمل المسؤولية ؟ الأمر - فيما يبدو - يرجع إلى انشغال الأمويين فى المغرب بالفتوحات ، ونشر الإسلام فى تلك الأصقاع البعيدة من أرض الله .

والقرون الخمسة هذه مساحة زمنية قامت على امتدادها فى المغرب عدة دول : الإدريسية ، والزناتية ، والمرابطية ، والموحدية ، بعضها متعاقبة ، وبعضها متجاورة ، أو متزامنة ، وبعضها كان تابعًا للأمويين فى الأندلس ، وبعضها كان بعيدًا عنهم ، يتمتع بقدر كبير من الاستقلال ، وبين هذه الدول نفسها أحيانًا فترات زمنية ، هى تلك الفترات التى تقع بين أُفول نجم دولة ، وسطوع دولة أخرى واستقرارها .

هذه الفترات المعلقة فى فضاء الزمن ، تقع فيها بالتأكيد انتكاسات فى الحركة الثقافية ، وتوقُّف فى نشاط رجالها ومؤسساتها ، إذ إن أولى الأمر يكونون فى حال من الصراع تشغل عما تحتاجه الثقافة من استقرار وتشجيع ومساندة مادية ومعنوية .

وعلى كل حال فإن الخزائن المغربية لم تتجاوز - فى رأى د . بنبين - فى هذه القرون مرحلة «النشأة » والمعلومات المتوافرة عنها قليلة نادرة ، فهى فترة مظلمة تمامًا قبل الدولة الإدريسية ، وشبه مظلمة فى الإدريسية ، وشبه مظلمة أيضًا - ولكن بدرجة أقل - فى الزناتية . قبل الإدريسية لم يتمكن د . بنبين من أن يشير إلى أكثر من احتمال أن تكون فى المساجد حجرات أو زوايا تضم نسخًا من القرآن وبعض مصنفات الحديث[٢] . وليست صورة الخزانة المغربية فى الدولة الإدريسية بأحسن حالاً ، فالأمر لا يعدو الاعتقاد بوجود خزانة خاصة لأحد خلفائها .

أما فى عهد الزناتيين فثمة نقطة مفصلية ، هى اشتهار أمر جامعيْ القرويين والأندلس ، وتزويد خزانتيهما بالعديد من الكتب[٣] . وبين الزناتيين و المرابطين فترة تمتد قرابة قرن ونصف القرن ، وعلى الرغم من الصراعات التى شهدتها فإن المصادر تشير إلى (٦٢) خزانة فى مدينة سبتة وحدها بشمالى المغرب .

ومع المرابطين والموحدين صار من الممكن التمييز بين ثلاثة أنواع من الخزائن :

---

(١) ص ٢٨ .
(٢) ص ٢٩ .
(٣) ص ٣٣ .

الملكية ، والشخصية أو الخاصة ، والعمومية . وعرف التاريخ خزانة الخليفة المرابطى يوسف بن تاشفين ، والخليفة الموحدى عبد المؤمن ، كما عرف خزائن مجموعة من العلماء والأعيان ، وخزائن عامة أو عمومية .

ومع المرينيين ومن جاء بعدهم من الوطاسيِّين و السعديين والعلويين أصبحت الخزائن مؤسسات رسمية ، تحظى برعاية الدولة واهتمامها ، كما ظهرت خزائن المدارس والزوايا ، واستمرت فى الوقت نفسه الخزائن الملكية ، وزاد عدد الخزائن الخاصة التى تنتمى إلى مختلف فئات المجتمع وشرائحه .

ويبدو أن هذا الانتشار كان واضحًا لدرجة أن د . بنبين قرّر أنه يتعذّر حصرها . أما الخزائن العمومية فقد انتشرت انتشارًا كبيرًا حتى كان كل مسجد كبير يحوى خزانة كبيرة .

وهنا وقفة مهمة ، فالدكتور بنبين يرى أن القرن الثامن الهجرى شهد ظهور أعيان العلماء وفحولهم ، ففيه اغتنت الخزانة المغربية بالمصادر الرئيسة لتاريخ المغرب . وهذا القرن ـ على حد تعبيره ـ هو قرن ابن أبى زَرْع صاحب «روض القرطاس» ، وابن خلدون صاحب «المقدمة والعبر» ، وابن البناء المراكشى الفلكى العبقرى . وفيه ازدهر جنس الرحلة ، وظهر ابن بطوطة والعبدرى وابن رشد(١) .

وعلى العكس منه (أى القرن الثامن) كان تاليه (التاسع) ، فقد تراجع التأليف بسبب الركود والأزمات السياسية الخطيرة ، ولم نعد نجد مشهورين ؛ لا فى الأدب ولا فى التاريخ ولا فى الرحلة ولا فى الترجمة وكتابة المناقب . كذا نقل بنبين عن د . محمد حجى ، الذى استثنى بعض المتصوفة و الفقهاء(٢) . ويبزغ القرن العاشر ليصبح امتدادًا للثامن ، ثم تعود دورة الركود مع غروب هذا القرن وأفول نجم السعديين ، ثم مرة أخرى ترجع الحياة إلى الخزائن المغربية مع ظهور العلويين .

ثم بدأت أوضاع هذه الخزانات تتدهور ، حتى وصلت مع مطالع القرن العشرين وغداة الحماية الفرنسية الإسبانية (١٩١٢م) إلى حالة يرثى لها ، غير أن ما أنجزته القوتان ـ على حد تعبير د . بنبين ـ فى ميدان الثقافة كان ذا أهمية لا نظير لها ، فقد قاموا بإعادة تنظيم الخزانات الموحدية ، وأعدوا لها القوائم و الفهارس ، وأسسوا خزانات جديدة ، وظهر ما

---

(١) ص ٧٧ .

(٢) الموضع السابق .

عرف بالمكتبات العامة ، والمكتبات البلدية . وهذه الفترة فترة الحماية وما بعدها (المغرب المستقل) هى التى نقلت الخزانة المغربية من وضعها التقليدى إلى الوضع الحديث .

٣-٢ : باب الخزائن

ولدت الخزانة المغربية (شأنها فى ذلك شأن شقيقتها المكتبة المشرقية) فى حضن المسجد ؛ ففيه كانت تقام حجرات أو زوايا تضم نسخًا من القرآن الكريم ، وبعض مصنفات الحديث . ولعل طارق بن زياد هو أول مغربى مسلم امتلك خزانة خاصة ، كان قد اكتشفها فى بلد الوليد التى فتحها ٧١١م ، ثم أهداها إلى الخليفة الأموى الوليد ابن عبد الملك[١] . ولعل الخليفة الإدريسى يحيى الرابع هو أول من امتلك خزانة كتب كبيرة خاصة[٢] ، ولا شك أن جامعَيْ القرويين (أسس ٢٤٥هـ) والأندلس ، شهدا خزانتى كتب على نحو ما ، فقد كانا موطن حركة علمية وتعليمية نشطة ، وهو ما أشار إليه د. بنبين نقلاً عن صاحب «زهرة الآس» الذى وصف حالة التعليم فيهما . ومعلوم أن التعليم لابد أن يترافق مع خزائن المكتبات .

وإلى جانب ذلك فإن الأمير الزناتى المثقف هامان بن المعز كانت له ـ على حسب اعتقاد بنبين ـ خزانات كتب[٣] . وانتشرت الخزائن فى المغرب حتى بلغت العشرات ، وكان أصحابها من الأغنياء و الأعيان والعلماء ، ومن أشهرهم العالم ابن العجوز الذى أسس خزانة كتب كبيرة [٤] .

وقد عرف المغرب ثلاثة أنواع من الخزانات : الملكية ، الشخصية أو الخاصة ، العمومية . فعلى صعيد الملكية أشرنا آنفًا إلى خزانة الإدريسى يحيى الرابع ، ثم ظهرت خزانة المرابطى ابن تاشفين التى تشتتت فى مدينة سبتة بشمالى المغرب ، ثم بُعثت من جديد على يد الموحِّدى عبد المؤمن ، وازدهرت أيما ازدهار بوصول ابنه أبى يعقوب يوسف إلى الحكم .

ولا نعرف كثيرًا عن الخزائن الملكية فى العصر المرينى ، لكن الذى لا شك فيه أن هذا النوع من الخزائن بلغ أوجه فى عهد الخليفة أبى عنان ، الذى كانت له مكتبتان ؛

(١) ص ٢٩ .
(٢) ص ٣٣ .
(٣) ص ٣٥ ، ٣٦ .
(٤) ص ٣٦ .

إحداهما فى القصر الملكى فى فاس ، و الأخرى هى مكتبته المتنقلة ، إنها نوع من المكتبات السيارة التى كان الخليفة يصحبها معه فى تنقلاته[١] .

وتصبح الصورة أكثر وضوحًا عند السعديين ، فخزانة الشرفاء السعديين أسسها مؤسس الدولة محمد القيم ، وكانت نواتها كتب الخزانة الملكية الوطاسية . على أن الوقفة الطويلة ينبغى أن تكون عند الخزانة السعدية فى عهد المنصور الذهبي[٢] .

أما الخزانة العلوية فتعود أيضًا إلى مؤسس الدولة العلوية الشريف مولاى رشيد ، ونواتها أيضًا من خزائن الدول السابقة والزوايا .

وأشهر الخزانات المغربية الخاصة خزانة ابن الصقر (ت ٥٦٩هـ) . وثمة خزانات أخرى عديدة ذكرتها كتب التاريخ[٣] .

أما الخزانات العامة فإن أولها خزانة أبى الحسن الشارى (خزانة كتب العلوم)[٤] ، ثم تلك التى أسسها الموحدون فى مراكش ، ولم تكن عامة بالمعنى الذى نعرفه اليوم ؛ بل كانت عامة بمعنى أنها للأمراء والأطفال من العائلة المالكة[٥] .

٣-٣ : باب الجغرافيا

التاريخ والجغرافيا توأمان ، فالتاريخ لا يتحرك إلا فى حضن الجغرافيا ، والجغرافيا بدون حركة التاريخ مساحة ساكنة من الموت . و كتاب د . بنبين كتاب تاريخ . وهذا صحيح ؛ لكنه تاريخ بقعة جغرافية بعينها ، هى المغرب . وإذا كان التاريخ قد بخل أو عمَّى علينا ما رغب د . بنبين فى صيده من حياة الثقافة عمومًا ، وحياة مؤسساتها على وجه الخصوص ، فإنه بخل أو عمَّى بالدرجة نفسها المعلومات التى تتصل بالأرض والمدن ، لكن الرجل استطاع عبر عمليات تطواف واسعة وشاقة فى المصادر باختلاف أنواعها أن يرصد جغرافيًا أن الخزانة المغربية قد تكون بدأت بمجموعة كتب وردت عبر قنوات متعددة من إسبانيا (الأندلس) ولعل بعضها جاء من «بلد الوليد ، ومن قرطبة ، وأيضا من تهارت (الجزائر) والقيروان (تونس) ، واستقرت فى فاس وأصيلا والبصرة وطنجة ، وخاصة

(١) ص ٨٨ .
(٢) ص ٧٥ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ٩١ .
(٣) ص ٦٠- ٦٤ .
(٤) ص ٦٩ .
(٥) ص ٦٨ .

سبتة ، هذه الأخيرة التى بلغ عدد المكتبات فيها - كما سبق - فى وقت مبكر (٦٢) مكتبة .

ويمر وقت ليس قصيرًا حتى تأخذ مراكش عاصمة المرابطين والموحدين مكانتها عاصمة سياسية وثقافية ،لتلتقى فى خزانتها الملكية مجموعات من كتب مختلف أقاليم إسبانيا (الأندلس) ، وتكتب لها خاصة ، وتُهدى إليها الكتب من أعلام العصر . وتشير المصادر إلى أن خزانة قاضى مراكش الكبير ابن الصقر (ت ٥٦٩هـ) قد تكوّنت مما حمله معه من المدينة الأندلسية بلنسية ، وقدّروه - بلغة القدماء - بخمسة أحمال من الكتب .

ولم تكن الخزائن حكرًا على مدن الشمال ، فثمة خزانات فى مدن الجنوب فى سوس ، وإليغ .

كما تشير المصادر إلى أن كتبًا كانت تُشترى من القاهرة ومكة وإستانبول ، وتحمل إلى عاصمة السعديين ، بناء على تكليف مباشر من الخليفة المنصور الذهبي ، أو بسعى منه شخصيًا عبر اتصالاته مع حكام وأمراء وعلماء فى تلك البلدان . وأكثر من ذلك فإن بعض الكتب الطبية والأناجيل و المصورات الجغرافية وردت إليه من هولندا وإيرلندا[١] .

وفى عهد الدولة العلوية تجمّعت الكتب فى مكناس التى أصبحت العاصمة السياسية للملك إسماعيل ، وبلغ عدد مخطوطاتها (١٢) ألفًا . ولم تتوقف حركة الكتب ، فظل الملوك يأتون بها أو يؤتى بها إليهم من مصر و العراق وإستانبول وشبه الجزيرة العربية وليبيا .

ولا ننسى الرباط التى نُقلت إليها الخزانة الملكية من مراكش فى بداية العَقد الثانى من القرن العشرين ، بعد أن أصبحت عاصمة المغرب ، كما لا ننسى السودان الغربى (مالى وتشاد) الذى فتحه السعديون فى النصف الثانى من القرن السادس عشر . وهنا لابد من ذكر مدن تنبكت و تمكروت ودرعة وآسفى وطنجة ووزان وتطوان وسلا[٢] . وكما بدأت الخزائن المغربية بكتب من إسبانيا - كما ذكرت - فإن خزانة القرويين المستقلة التى أسسها أبو عنان سنة ٧٥٠هـ ، زودت فى عهده بثلاثة عشر حِملاً من الكتب أُرسلت من إسبانيا .

---

(١) ص ٩٤ .

(٢) انظر ص : ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ .

- ٤ -

النوافذ

(نظرات نقدية)

هذه مجموعة نظرات نقدية . وليس النقد هنا بمعنى التوقُّف عند الهَنات وتَعداد المثالب ، ولكنه بمعناه السويّ ، وهو وضع اليد على مواطن الإحسان والإساءة ، وما حالف المؤلف فيه التوفيق ، وما تخلّى عنه فيه .

٤-١ : نظرة فى المنهج

والحق أن مادة الكتاب ثرية ومتشابكة تشابكًا معقّدًا . وقد أشرت إلى ذلك من قبل . وعلى الرغم من ذلك فإن د . بنبين تمكن من التعامل مع هذه المادة واستطاع أن ينظمها فى عِقْد متناسق لا ترى فيه عوجًا ولا أمتًا . وأول ملمح فى هذا العقد التوازن الشكلى والعلمى وما يرتبط به من قسمة عقلية منطقية صارمة .

صبَّ المؤلف مادته فى بابين رئيسين : أولهما : تاريخى ، وثانيهما : موضوعى فنى ، منسجمًا تمامًا مع عنوان الكتاب «تاريخ خزائن الكتب فى المغرب» . وقد تحقّق التوازن المحمود بين البابين ، فلم يطغ أحدهما على الآخر ، فقد وقع الأول فى ١٤٩ صفحة (٢٣ - ١٥٢) والثانى فى ١٣٣ صفحة (١٧٣ - ٢٨٢) . والبابان وقع كل منهما أيضًا فى أربعة فصول . قسمة هندسية تكشف عما وراءها من عقل منظم ومنطق محكم .

هذا التوافق الشكلى وازاه توافقٌ فى المادة نفسها ، فالأول تناول الخزانة من وجهة نظر تاريخية : النشأة ، والنمو ، والازدهار ، والانتقال من التقليدية إلى العصرية . والثانى عرض للخزائن أيضًا ، ولكن فى بنيتها و ما يتصل بها ، فكان الحديث عن المحنة التى تعرضت لها والمنحة التى رفدْتها (الوقف) والأدوات التى ساعدت على ذلك (الوراقة والمطبعة) ، وأخيرًا محتوياتها من مخطوطات نادرة ومنتسخة بخطوط مؤلفيها ، أو عن أصول نادرة وفريدة ، ومخطوطات المؤلفين اليونانيين واللاتين .

٤-٢ : نظرة فى المصادر

ذيّل د . بنبين كتابه «ببليوغرافيا» بالمصادر والمراجع التى اعتمدها أو أفاد منها ، وقد جعلها فى قسمين رئيسين : قسم باللغة العربية ، وآخر باللغات الأجنبية ، وكل من القسمين مقسوم إلى ثلاثة أقسام : مراجع (أى كتب) ، ومقالات ، وفهارس وقوائم ببليوغرافية . وهنا نعود إلى ذلك العنصر البارز فى منهج الكتاب الذى هو ثمرة عقل صاحبه .

وتكشف ببليوغرافيا المصادر والمراجع عن سعة معرفة د. بنبين وانفتاحه على التراث العربى، وعلى الكتابات العربية الحديثة فى ميدان تخصصه، وعلى الثقافة العربية قديمها وحديثها. وهى مصادر ومراجع متنوعة تنوعًا شديدًا: مخطوطات ومطبوعات وموسوعات وتاريخًا وتراجم وجغرافية وخططًا وصناعة مخطوطات واجتماعًا وأدبًا وفهارس وببليوغرافيات.

٤-٣ : نظرة فى لغة الكتاب

هذه نظرة غير منصفة، وذلك لأنها تتناول الكتاب فى ترجمته العربية، والترجمة لم يقم بها صاحب الكتاب نفسه، بل قام بها تلميذه (مصطفى طوبى). نعم تمت تحت إشراف د. بنبين، لكنها ليست بقلمه. وعلى أية حال فإن لغة الكتاب أو صياغته هى نقطة الضعف الرئيسة فيه، إذ لا شك أنها لم تتساوق مع المادة ومستواها العلم؛ غزارةً ومعالجة. وقد تنوعت لتشمل ارتباكاتٍ فى الصياغة اللغوية تُحس معها بقلق العبارة وتكسُّرها، وأخطاء لغوية متنوعة، وأخرى فى الرسم، وخللاً فى استخدام حروف الجر. ولديَّ شواهد كثيرة على ذلك كله، لكننى أكتفى هنا بإشارات، توخيًا لعدم الإطالة.

ارتباك الصياغة

شكَّل هذا الارتباك ظاهرة لا تخفى، وكان السبب فى ضياع إشراقة العبارة وفقدانها رونقها، حتى لتشعر كأنك تقرأ كلامًا غير عربى بحروف عربية، أو كأنك تطالع عبارات ساذجة كتلك التى يركّبها أجنبى عن اللسان العربي، أو مبتدئ فى تعلُّم اللغة العربية. ومن الصعب تصنيف هذا الارتباك أو ضبطه، ولذلك سأورد منه نماذج، ثم أعيد صياغتها لجلاء الفرق، أو أعلِّق عليها:

ص ٣٥ : إن العلماء والأدباء كانوا يحفُّون بزعماء بعض هاته الإمارات .. هدفًا فى خلق مجالس علمية رائعة، وهى مثلاً حالة هامان بن المعز ...

التعليق : كلمة «هدفًا» هنا لا معنى لها، وكذلك «هي» لا ندرى على ماذا تعود؟ ولو كانت العبارة : إن العلماء .. حُفُّوا بزعماء .. فشهدنا مجالس .. ومن الأمثلة مجلس هامان .. إلخ، لكانت أبْين.

ص ٣٨ : إن هذا الكتاب الضافى اليوم كان سيكون المصدر الهام لكل ... والعبارة بإشراقتها : لقد فقدنا بهذا الكتاب مصدرًا هامًا من مصادر ...

ص ٧١ : وبعد هذا فنحن نلاحظ . .تشابهًا . .فقد كانت تضم هاته المجموعات جميعها كتب التفسير و مجاميع الحديث . . فقد كانت المكتبات المغربية تحظى بأهمية خاصة ، فالكل كان يسهم في تزويدها بالكتب .

التعليق : انظر إلى توالى «فقد كانت» ، ثم إلى توالى الفاءات . وكأن العربية لا تملك سوى «الفاء» . .

ص ٨٥ : ونذكر أيضًا كُتْبيّا كبيرا من القرن ١٨م . . ويتعلّق الأمر بأبى عبد الله محمد ابن عبد القادر الفاسى . .

التعليق : لا معنى لـــ « ويتعلق الأمر » . كان يغنى : وهو أبو عبد الله . .

ص ٨٥ أيضًا : إن ما سيبذله المرابطون وخاصة الموحدون . . ولا داعى للتعليق !

ص ١٤٦ : فالمغاربة ، وبوجه خاص الملوك ، كانوا يجدون نخوة فى أن يتوفروا على مخطوطات قيمة ، فلم يكونوا يتراجعون أمام أى محنة للحصول على مؤلَّف . . .

التعليق : لا معنى لكلمة «نخوة» فى السياق ، ويمكن أن نضع مكانها «متعة » كما أنَّ «يتوفروا» قلقة ، ويمكن أن نستعيض عنها بـــ «يجمعوا » ، وكذلك الأمر فى «يتراجعون» إذ الأنسب للسياق : يترددون فى دفع أى ثمن . وخير من «محنة» صعوبة أو عوائق مثلاً .

أخطاء لغوية ونحوية

انتشرت كلمة «يذخروا »فى غير موطن ، والمقصود «يدخروا» من الادخار ، والأُولى من الذُّخر ، وفرقٌ كبير بين الدلالتين[١] .

ومثلها «حذا[٢] » والمراد : حدا بمعنى دفع . والأُولى بمعنى اتبع ، يقال حذا حذوه ، فهل تفى بمعنى : دفع به ؟ ! .

ومثلها : « عثراء[٣] » نعتًا لـ «حَجَرة» ، ومعلوم أن المراد : حجر عثرة .

ومن الأخطاء النحوية : انقسم المغرب إلى ثلاثة دول ، والصواب : ثلاث دول ، للمخالفة بين العدد والمعدود .

(١) ص ٣١ ، ٤٥ ، ٧١ .
(٢) ص ٣٣ .
(٣) ص ٣٥ .

ومنها : وبقى فيها ثمان سنوات[١] .. والصواب ثمانى ..

ومنها : ولم يكن لهاته المكتبة فى ما يبدو طابعا عموميًا[٢] .. وصحتها : طابع عمومي .

ومن التجاوزات اللغوية : وتتمظهر هاته الحركة[٣] .. ولا أحسب «تتمظهر» هذه كلمة فصيحة .

ومنها : إلى اثنى عشرة ألف مخطوط[٤] .. والصواب : عشر ، بدون التاء .

ومنها : وتعهد الحاميون الفرنسيون[٥] .. والصحيح : الحامون ، كما نقول فى جمع القاضى : القاضون ، ولا نقول : القاضيون .

ومنها : إن ما أنجزته هاتان القوتان ذا أهمية[٦] . والصواب : ذو ..

استخدام حروف الجر

هذه نقطة تدخل فى باب الأخطاء اللغوية ، لكنى أفردتها لفشوّها فى الكتاب . ومن نماذجها تعدية « ترتّب » بـ «عن»[٧] ، وحقه أن يعدّى بـ «على» ، ففى المعجم الوسيط «يترتب عليه كذا : يستقرُّ وينبنى ..

وتعدية «نقف» بالباء[٨] ، وحقه التعدية بـ «على» أيضًا ، فلا نقول : «غالبًا ما نقف بلفظه خزانة فى مصادر .. بل : نقف على لفظة ...

الرسم :

ومن المفارقات أن يرد « الخط المنصوب» [٩] ، وهو بداهة : الخط المنسوب .

---

(١) ص ٦٨ ، ٩١ .
(٢) ص ٦٨ .
(٣) ص ٧٥ .
(٤) ص ٩٥ .
(٥) ص ١٤٧ .
(٦) ص ١٥٢ .
(٧) ص ٢٣ ، ٣٢ .
(٨) ص ٢٨ ، ٣٧ .
(٩) ص ٢٦٢ .

٤-٤ : نظرات أخرى

سأكتفى بالتوقف عند نقطتين أدَّتا فى تقديرى إلى خلل منهجى ، وإزعاج للقارئ .

أ - التعبيرات والمصطلحات

من الغريب أن يعبَّر عن منطقة ما بين النهرين وسورية ومصر بـ «الشرق الأوسط» وعن تونس كذلك[١] وبخاصة أنه ورد فى سياق تاريخى عن المكتبات التى تعود إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ، لأن (الشرق الأوسط) مصطلح حديث .

وأكثر من ذلك أن يوصف الفتح الإسلامى لإسبانيا بأنه «الاحتلال العربي»[٢]!

وكذلك التردد فى استخدام كلمة الأندلس مرة ، وإسبانيا مرة أخرى . وأحيانا يكون الاستخدام فى السياق نفسه[٣] !

ب - التواريخ

لم يجر ذكر التواريخ على سُنَّة واحدة ، فمرة يُذْكر الهجرى مفردًا ، وأخرى الميلادى مفردًا ، وثالثة يُقْرَن بينهما[٤] . مما يعد خللاً منهجيا ، وإرباكًا لا مسوغ له للقارئ .

وبعد ، فهذه نماذج ، مجرد نماذج . أما التتبع فتلك قضية أخرى .

* * *

كانت هذه رحلة فى عقل د . بنبين وجولة فى كتابه ، ولا أحسب أن الرحلة و الجولة إلا ومضات أضاءت ، لكن النور الذى خلَّفتْه محكوم مساحة وزمنًا .

أما الخير فلا يزال فى ضرع تلك السحابات المليئة بالماء والخضرة ، وما على الظمآن المشتاق إلا أن يسعى إلى الكتاب نفسه ، ويمنحه وقتًا وصبرًا .

---

(١) ص ٢٣ ، ٣٠ ، ١١١ .
(٢) ص ٣٠ .
(٣) ص ٤٠ .
(٤) ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ١٠٦ .